المحاضرة الثانية :التوسع الفرنسي في الشمال الجزائري

تمهيد .بعد توقيع معاهدة الاستسلام بين الداي حسين والقائد الفرنسي ديبرمون ، لم يتردد الفرنسيين ولم يضمروا رغبتهم في التوسع في شمال البلاد خاصة لعلمهم بأهمية المنطقة وما تتوفر عليه من خصائص ومغريات فضلا عن الزامية فك العزلة والحصار المفروض عليهم من طرف الجزائريون.

1/ محاولة التوسع في متيجة والبليدة :

جاء التفكير في التوسع فيها بعد العزلة السياسية والحصار الاقتصادي الذي ضرب عليهم من قبل الجزائريين فتحولوا من محَاصِرِين إلى محاصَرين فدب الخوف والتذمر في صفوف الجيش ،ومنه قرر ديبرمون فكه عن طريق ترأس حملة نحو مدينة البليدة التي خرج إليها في 23 جويلية ووصلها واعتقد أن أمورها ميسرة ليفاجئ شارك فيه ألاف الجزائريين من سكان البليدة (بني صالح وبني مهرة وبني خليل وبني مهرة)فأصبح في موقف الدفاع ثم فر مخلفا وراءه خسائر فادحة مادية ومعنوية (15 قتيلا و43 جريحا)

2/ محاولة الاستيلاء على عنابة :

أرادت فرنسا استعادة مصايد المرجان والمحطتين التجاريتين بعنابة والقالة فأرسلوا حملة بقيادة "دامريمون"في 1830/08/02 لكنها أخفت أم مقاومة سكان مدينة عنابة وضواحيها واجبروا على الانسحاب في 1830/08/18

نصب إبراهيم الكريتلي الذي قاد مقاومة داخل المدينة ضد المحتل الفرنسي في حملته الأولى ضد عنابة ونصب هذا الأخير نفسه بايا هناك في انتظار افتكاك قسنطينة من الحاج أحمد باي وكان هذا الأخير معتمدا على نفسه وعلى بعض الأتراك الموجودين في القصبة وفي شهر ديسمبر وقع كلوزيل معاهدة مع باي تونس تعطي إقليم قسنطينة إلى أحد أقاربه بما فيه عنابة ، غير أن المعاهدة لم تتم لرفض الحكومة الفرنسية وهذا جعل عنابة لا تأمن ولا تثق في الفرنسيين ولا التونسيين ، وأثناء ذلك احتل إبراهيم الكريتلي قصبة عنابة يوم 1831/09/25ورفع عليها العلم الإسلامي وفي نفس الشهر وصل الضابط هودير و بيقو في طريقهما إلى تونس لمهمة سرية وحاولا

دخول قصبة عنابة فوجدا مقاومة وعجزا عن الدخول واستنجد أعيان القصبة بالحاج أحمد باي فأرسل لهم نجدة بقيادة عمار بن زقوطة ودارت معارك انتهت بمقتل الضابطين هودير وبيقو

هنا استخدم قائد جيش الاحتلال الضابط "رفيقو " أسلوب الخداع فأرسل أحد ضباط وهو "دار ماندي " إلى عنابة باعتباره قنصلا تونس لإبراهيم الكريتلي وليتمسك بحقه للعودة لحكم قسنطينة وظل دارماندي ويوسف المملوك يكيدان لابراهيم الكريتلي وأعيان عنابة ويدفعان مختلف الأطياف لعلهم يجدون ثغرة للاحتلال اتلفرنسي وبلغ بهما الآمر أن مكنا إبراهيم من تجنيد 400 تركي من أزمير من طلب المعونة من باي تونس وكان دارماندي ويوسف المملوك يشجعان الحزب التركي وكان يدفعان إبراهيم الكريتلي ألى مواجهة أحمد باي حتى يضطر لطلب النجدة من الفرنسيين وحانت تلك الفرصة عندما هزم أحمد باي الكريتلي ودخل علي بن عيسى بالاتفاق من أعيانها وهرب دارماندي واللقيط يوسف وعندئذ رضخ إبراهيم الكريتلي لشروط الفرنسيين بالدخول تحت حمايتهم وظل محاصرا إلى أن وجد مخرجا وهرب إلى ضريح بومعيزة وكان الفرنسيون المختبئين وراء الكريتلي قد تسربوا إلى قصة وحملوا الجنود الأتراك لمحاربة جيش ابن عيسى وكان هذا الأخير قد رفع الحصار وأخلى المدينة ليلا حتى يجدها الفرنسيون خاوية وقد عاث اللقيط يوسف فسادا في عنابة فقتل 3 جنود كما كبل 3 آخرين وقتل المتمردين بالرصاص وبذلك دشن اللقيط يوسف العهد الفرنسي في عنابة 1832.

وحول مصير الحزب التركي فقد دبروا مؤامرة الخيانة وقاوموا بترحيلهم إلى المشرق غير أن المقاومات الشعبية ضلت قائمة من طرف أحمد باي وكذلك بلقاسم بن يعقوب وبلعربي وغيرهما.

3/ توجيه حملة إلى وهران والمرسى الكبير:

بعد تحريرها من الإسبان تحولت وهران لقاعدة حكم لبايات بايلك الغرب الجزائري وقد طمع الفرنسيون في الاستحواذ عليها للتحكم في تحركات مضيق جبل طارق فأرسل ديبرمون حملة يتراسها ابنه "اميدي ديبرمون "وتمكنت فرقة فرنسية من الاستيلاء على المرسى الكبير وحون مدينة وهران لكن مقاومة السكان جعلت الحملة تعود مهزمة بل أن اميدي لقي حتفه فيها ،فحملت إلى ديبرمون أنباء النصر ممزوجة بألم فقد ابنه لكنه الحزن غالبه لدرجة أثرت على تصرفاته القيادة مما دفع لعزله وتعيين بدلا منه كلوزيل .

4/ حملة كلوزيل عن البليدة والمدية :

وجه كلوزيل الجيش نحو البليدة متجرع فيها كؤوس العلم على يد المقاومين وفي نوفمبر 1830احتل مسجد البلدة وجعله مستشفى عسكريا وأطلق العنان لجيشه لمطاردة السكان حيثما كانوا وتعقبهم حتى داخل الغابات والجبال المجاورة ، ثم أمر كلوزيل الجيش بمغادرة البليدة والتوجه للمدية وفي مضيق موزاية وقعت معركة حامية بين المقاومين وجيش العدو ويقول الفرنسيون أن المقاومين كانوا جزءا من جيش الباي بومزراق وفي هذه المعركة سقط للفرنسيين 27 قتيل بينهم 3ضباط وجرح لهم 80 جندي ودخل كلوزيل المدية يوم 22 نوفمبر ونصب عليها بايا جديدا وكان إمعة وهو مصطفى بن الحاج عمر وأقام كلوزيل حوالي 5 أيام في المدية يحاول تنظيم إدارة محلية تابعة للفرنسيين فجند بعض الجنود المرتزقة المحليين (ميليشيا)لمساعدة الباي الجديد وترك له أيضا 1200 جندي كحامية للدفاع عن المدينة ولكن دون ذخيرة ولكن بفعل ضعف الحماية والإدارة ونقص التموين فإن هذه الإدارة سقطت قبل عودة كلوزيل إلى مدينة الجزائر .

وبالعودة إلى المدينة البليدة والتي ترك على قيادتها "روليز" فعند معرفتهم بضعف الحماية ومغادرة العدو باتجاه المدية هاجموا العدو بقيادة ابن زعموم بمقاتلين يصل عددهم إلى 7-8الف شخص وقد بدأ القتال عند الساعة السادسة صباحا وضاقت السبل بروليير في غياب نجدة كلوزيل لجأ إلى استعمال المدفعية من الخلف فتراجعوا ثم هاجمتهم الحامية من الأمام مما أوقع الاضطراب في صفوف المجاهدين حتى استشهد منهم حوالي 800 شهيد وفرّ الباقون حوالي الساعة 11بعد قتال دام 5ساعات وهذا بتاريخ 1830/11/25 ، أما خسائر العدو فقدّرت ب 12 قتيل منهم ضابطان وجرح 55

بعد الفشل الذريع قرر ربح المال عن طريق بيع وهران وقسنطينة لباي تونس مقابل مليوني فرنك سنوي وهو ما تسبب في عزله من طرف وزير الحربية "ديليسبس"في 1831/02/20.

6/الاحتلال الفرنسي لمدينة قسنطينة :

بناءا على التصريح الذي أبداه الحاكم العام الفرنسي دوريفيقو (1831-1833)أن فرنسا لا يمكنها بحال من الأحوال أن تثبت أقدامها على أرض الجزائر دون السيطرة على مدينة قسنطينة والشرق الجزائري بصفة خاصة .

وعلى اثر استيلاء الفرنسيين لعنابة عام 1832 تخوف الحاج أحمد باي وأدرك النوايا العدوانية للمحتل وفي 21 جانفي 1836 تلقى المملوك يوسف أما من الماريشال كلوزيل باحتلال مدينة قسنطينة وعاث فيها فسادا وارتكب فيها جرائم شديدة الفظاعة إلا أنه مني بالفشل وانتهت النكبة بالتضحية بالماريشال كلوزيل والتخلي عنه وتعويضه بالماريشال دامريمون وتمكن هذا الأخير من البحث في أسباب القوة والضعف في الحملة الأولى لذا عمل كل ما بوسعه لتفادي عوامل الإخفاق ولا غرابة اذن ان يستدعي النقيب فولتر الذي كان في تونس وكلفه بمهمة استعلامية سرية حول الوضع بقسنطينة وطالبه بإعداد تقرير فصل حول ذلك وكذلك حول قولت الباي أحمد وعلى ضوء هذا التقرير شن الحملة الثانية خاصة بعد الاطمئنان على الجهة الغربية من البلاد بعد عقد معاهدة التافنة في ماي 1837 مع الأمير عبد القادر.

و في 1837/10/05 بلغت الحملة الثانية سطح المنصورة ورغم مقاومة الحاج أحمد باي الباسلة والتي أودت بحياة الماريشال دامريمون في 1837/10/12 إلا أن قوات الاحتلال الفرنسي تمكنت من احتلال المدينة وبذلك سقطت قسنطينة عاصمة البايلك الشرقي في قبضة المحتل في 1837/10/13

5/الاحتلال الفرنسي لمنطقة القبائل :

مر احتلال المنطقة بمراحل عديدة كانت أولاها تعود للعقد الأول (احتلال بجاية)سنة 1833 وكانت هذه العملية عملية جس نبض لانشغالها بثورة الأمير والباي أحمد مع ذلك أمكن لهم احتلال بعض المناطق كدلس وبجاية وبني منصور وذراع الميزان وأحاطها بمراكز عسكرية نظرا لأهميتها الإستراتجية فهي توجد في طريق قسنطينة ولها وجهة بحرية يمكن أن تكون مصدر تهديد وتعاون خارجي ذو أهمية اقتصادية من ناحية أخرى لما تتوفر به من خيرات زراعية كما يمكن تحويلها لسوق استهلاكية للبضائع الفرنسية بحكم الكثافة السكانية

وكان لبيجو دور فعال في التمهيد لبسط السيطرة على المنطقة في العقد الثاني من عمر الاحتلال قبل ان يستكمل حلاقات احتلالها الجنرال راندون في العقد الثالث منه.

والصعوبات الاحتلال تعود ل :

- تمسك السكان بقراهم المبنية على قمم الجبال حيث يسهل الدفاع عنها ويصعب ادراكها

- صعوبة التغلغل في المنطقة الجبلية ذات المسالك الصعبة والتي لا يعرفها إلا أصحابها وهذا ما يفسر لماذا لم تتحمس الحكومات لغزوها الا بعد 1850 أي بعد إخضاع الجهات الأخرى من الوطن والقضاء على ثورة الأمير عبد القادر التي أفسدت على فرنسا كل مخططاتها.